ملف القدس

خالد الفقيه*

بيت حنينا والجدار العنصري

تقع قرية بيت حنينا شمالي مدينة القدس، وتبعد عنها ٨ كيلومترات، وتحيط بها قرى بيت إكسا والنبي صموئيل من الغرب، وحزما وشعفاط من الشرق، وبلدتا الرام وبير نبالا من الشمال، وقرية لفتا المهجرة من الجنوب، وتبلغ مساحة أراضيها ١٥,٨٣٩ دونماً.

كانت القرية تتبع مدينة القدس إدارياً وتنظيمياً منذ القدم، وبقي الأمر كذلك حتى احتلال الضفة الغربية في سنة ١٩٦٧ حين قامت إسرائيل بمصادرة معظم أراضيها من أجل الاستيطان، فبنت مستعمرة راموت في أواخر السبعينيات على أراضيها الجنوبية، بينما ضُم جزء كبير منها شرقاً إلى مستعمرة النبي يعقوب، وشمالاً إلى مستعمرة عطروت التي تعد واحدة من المناطق الصناعية الإسرائيلية.

وعمدت سلطات الاحتلال إلى تقسيم البلدة إلى قسمين فأتبعت الجزء الشرقي منها، والمعروف ببيت حنينا الفوقا أو الجديدة، لبلدية القدس، والجزء الغربي المسمى بيت حنينا التحتا أو البلد، لمناطق الضفة الغربية. وعند مجيء السلطة الفلسطينية أُلحق هذا القسم الأخير بوزارات السلطة ومؤسساتها الخدماتية، مع أنه لا يزال يصنف بموجب الاتفاقات كمنطقة "ج" حيث الصلاحيات الأمنية هي من مسؤولية الجانب الإسرائيلي حصراً.

وبعد اندلاع الانتفاضة بنت سلطات الاحتلال أجزاء من جدار الفصل العنصري من ثلاث جهات أحاطت بالقرية وأبقت الجهة الشمالية فقط مفتوحة في اتجاه بلدة بير نبالا، وقد أدى هذا الجدار إلى تقسيم بيت حنينا إلى قسمين منفصلين شرقاً وغرباً من دون تواصل بينهما، كما يؤكد الأستاذ خالد أبو زيتون من سكان بيت حنينا البلد.

ويتابع أبو زيتون أن قراراً عسكرياً إسرائيلياً بمصادرة ٢٤٠٠ دونم من أراضي البلدة صدر في سنة ٢٠٠٤ لمصلحة جدار الفصل العنصري، الأمر الذي أدى إلى قطع تواصل السكان مع حقول زيتونهم شرقاً وجنوباً، ولا سيما أن الزيتون يشكل أحد أبرز منتوجات القرية الزراعية، ويعود عمر بعض أشجاره إلى العهد الروماني، كما قام الاحتلال بشق شارع استيطاني من الجهة الشرقية عزل بيت حنينا عن شقها الشرقي. ويضيف أبو زيتون أن سياسة المصادرات لم تتوقف، إذ أُلحق هذا القرار بقرار آخر يقضي بمصادرة ٥٥٠٠ دونم لمصلحة الجدار والاستيطان، ولم تفلح محاولات اللجوء إلى القضاء الإسرائيلي في وقف هذا القرار، بل إن الجرافات الإسرائيلية شرعت في قلع شجر الزيتون ونقله إلى المستعمرات.

الجدار: فصل جغرافي وتفتيت للنسيج الاجتماعي

إن الجدار الذي قسم بيت حنينا إلى قسمين معزول أحدهما عن الآخر تماماً، كان أثره في أسرة

(*) صحافي مقيم برام الله.

نسيم، على سبيل المثال، تراجيدياً، ذلك بأنه عزل الأسرة خلفه، بحيث مُنع أفرادها من مواصلة طريقهم في اتجاه القدس كونهم من حملة هويات الضفة الغربية، ولم يسمح لهم بالتواصل إلاّ مع بيت حنينا التحتا أو البلد عبر بوابة يحملون مفاتيحها، ولا يتجاوز عرضها ٨٠ سنتيمتراً، ويحرّم عليهم إدخال أي شخص عبرها كي لا يجد طريقه نحو القدس. وتتم المراقبة عبر كاميرا مثبتة بالقرب من المكان، وأي خرق لهذا يعني طرد سكان البيت، وعددهم ١٢ فرداً، من منزلهم.

وفي هذا الإطار يقول كمال نسيم الملقب بأبي رمزي إن بيت والده الذي بات خلف الجدار صار محرماً عليه، كونه من سكان بيت حنينا البلد ولا يستطيع اجتياز البوابة إلاّ بتصريح يخوله قطع مسافة ثلاثة أمتار، لكنه لم يحصل عليه بسبب الرفض الأمني من طرف جيش الاحتلال. ويضيف أن تواصله مع أمه وأبيه وإخوته خلف الجدار لا يتم إلاّ عبر قيامهم بزيارته في منزله، وإذا ما حدث أن أصيب أحدهم بالمرض فإن الاطمئنان عليه يكون في المستشفى لا في المنزل.

ومن ويلات الجدار الأُخرى ومصائبه كما يقول أبو رمزي التعامل مع الوفيات من السكان في بيت حنينا الفوقا أو الجديدة، إذ إن مقبرة قسمَي بيت حنينا توجد في بيت حنينا البلد، وفي حال حدوث وفاة، فإن على ذوي الميت حمل النعش في اتجاه رام الله عبر معبر قلندية العسكري والالتفاف به نحو قرية بير نبالا فبيت حنينا البلد وصولاً إلى جبانة البلدة، الأمر الذي يعني أيضاً أن على الميت ومشيّعيه قطع ٣٠ كيلومتراً بدلاً من كيلومتر ونصف كيلومتر، كما كان مألوفاً قبل الجدار.

ولا تنتهي المعاناة عند مواراة الميت في الثرى، وإنما تمتد على مدى ثلاثة أيام، ذلك بأن أهل الميت لا يجدون بدّاً من البقاء في بيت حنينا البلد واستئجار إحدى قاعاتَي الأفراح الموجودتين هناك لتقبّل التعازي من أقاربهم حملة هوية الضفة في هذا الجزء من البلدة، فقاعات الأفراح باتت تستخدم للأتراح. وهذا السيناريو يتكرر مع كل زيارة من ذوي المتوفى لضريحه، وقد تكون هذه الحالة دلالة على تقطيع الأوصال الاجتماعية لسكان البلدة في شتى المناسبات من زيجات وأفراح وأحزان.

الصحة والتعليم

لا يوجد في بلدة بيت حنينا أي صيدلية أو عيادة خاصة أو أهلية، وإنما تقتصر الخدمات الصحية فيها على عيادة تتبع وزارة الصحة الفلسطينية، وتُقدَّم فيها خدمات الرعاية الصحية الأولية يوماً واحداً في الأسبوع، الأمر الذي يدفع السكان إلى البحث عن الخدمات الطبية في القرى المجاورة، أو في مدينة رام الله، ومعظمهم لا يقدر على دفع ثمنها بسبب البطالة المتفشية بين الرجال بعد فقدهم مصدر رزقهم في الأرض التي صودرت لمصلحة الجدار والاستيطان، أو بسبب عدم قدرتهم على استصدار التصاريح اللازمة للعمل في القدس.

ويوجد في قرية بيت حنينا البلد أو بيت حنينا الضفة كما يسميها السكان مدرستان: الأولى، تدعى الأدهمية وهي مدرسة مختلطة يدرس فيها الطلبة حتى الصف السادس الأساسي؛ الثانية، مدرسة بيت حنينا الثانوية التي تنتقل إليها الفتيات لإكمال دراستهن، بينما يتعين على الذكور الذهاب إلى القرى المجاورة، مثل بير نبالا والجيب، الأمر الذي رفع نسب التسرب من المدارس، كما يقول الأستاذ خالد أبو زيتون مدير مدرسة أكاديمية الأراضي المقدسة، الذي يُرجع السبب في ذلك إلى أن القرية تفتقد شبكة مواصلات أو خطوط سير توصل إليها، وأن عمليات التنقل تجري بواسطة سيارات غير قانونية حتى بلدة بير نبالا، ثم الانتظار هناك لركوب مواصلات أُخرى إلى رام الله. ومدرستا البلدة تتبعان وزارة التربية والتعليم الفلسطينية، ويبلغ عدد الطلبة فيهما ١٥٠ طالباً وطالبة من مجموع عدد السكان الذي لم يعد يتجاوز ١٥٠٠ نسمة.

وبحسب أبو زيتون، فإن مدرسته التي كانت منذ افتتاحها في سنة ١٩٩٩ تتخذ من بيت حنينا البلد

مقراً لها، وتستقطب الطلبة من مختلف مناطق محافظة القدس امتداداً من قرية الجيب حتى التلة الفرنسية ووادي الجوز مروراً بالرام وحزما، قد اضطرت في سنة ٢٠٠٣ إلى الانتقال إلى بلدة الرام، وذلك بسبب الجدار وعدم قدرة مواصلات الأكاديمية على الوصول إلى الطلبة لجلبهم وإعادتهم، الأمر الذي تسبب بانخفاض نسبة الطلبة الملتحقين بها من المناطق خلف الجدار بنسبة ٧٠٪.

ووفقاً للسكان، فإن البلدة تعاني تفشياً واضحاً في ظاهرة المخدرات، ولا سيما أن كثيرين من مروجي هذه الآفة هم من الإسرائيليين الذين يحضرونها إلى مناطق قريبة حيث يوزعونها على الشباب مستفيدين من عدم تمكن أجهزة الأمن الفلسطينية من العمل فيها كونها من المناطق المصنفة "ج".

الآثار

اكتشفت سلطات الاحتلال في أثناء عمليات التجريف لإقامة الجدار آثاراً تعود إلى العهد البيزنطي، فأحاطتها بالسرية واستجلبت علماء آثار إسرائيليين إلى المكان الواقع غربي البلدة حيث قاموا بالتنقيب بعد تغطيتها بسواتر قماشية، وعقب انتهائهم من ذلك جعلوها خلف الجدار، ثم بدأ المستوطنون بزيارة المكان في محاولة للاستيلاء عليه وإظهاره كمعلم يهودي مقدس.

الهجرة

بعد هذه المضايقات التي تعرض لها سكان البلدة بفعل الجدار واعتداءات المستوطنين المستمرة عليهم، وخصوصاً الاعتداءات على المنازل الواقعة على أطراف البلدة من الجهتين الغربية والجنوبية، والتي تطال البشر جسدياً والشجر تجريفاً، فضلاً عن عمليات الدهم والاعتقالات التي ينفذها جيش الاحتلال ليلاً، وكذلك ضيق الحال وقلة الأشغال والأعمال، فإن كثيرين من أهالي البلدة اضطروا إلى الرحيل عنها إمّا في اتجاه رام الله والقرى المجاورة، وإمّا نحو الشطر الآخر من القرية بالنسبة إلى حملة الهوية الزرقاء حفاظاً على مواطنيتهم في مدينة القدس، ومن أجل قطع الطريق على قيام الاحتلال بسحب هوياتهم المقدسية منهم. أمّا القسم الآخر من الأهالي، كما يؤكد أحمد البورش رئيس مجلس محلي بيت حنينا، فقد آثر اللحاق بأقاربه المقيمين بالولايات المتحدة الأميركية.

ومن مآسي الاحتلال الأُخرى التي أصابت بيت حنينا، ضرب الحركة التجارية فيها، فبعد أن كانت قبلة المتسوقين من أحياء القدس القريبة مثل شعفاط وحزما والرام وبير نبالا وبيت حنينا الفوقا بحكم قربها من مدينة رام الله، وبالتالي رخص الأسعار فيها، أضحت اليوم منطقة بلا محال تجارية، إذ أقفل أصحاب المحال الكبرى محالهم التي انتشرت في البلدة قبل بناء الجدار العنصري، أو نقلوها إلى قرى أُخرى أكثر حيوية ونشاطاً. وعلى هذا الأساس عندما تسأل أحداً من البلدة عن أحوالها ووضعها يبادرك بسؤال قبل أن يجيب، هو: قبل بناء الجدار أم بعده؟ الأمر الذي يعني أن سكان بيت حنينا استحدثوا روزنامة للزمن مرجعها تاريخ بناء الجدار العنصري. ■